سيكولوجية المرأة
(التكوين النفسى)

يرى د.يوسف مراد فى كتابه «سيكولوجية الجنس» أن صفاتٍ معينةً تفسر لنا شخصية المرأة، ونفسيتها، وأول هذه الصفات تطلع المرأة للكمال، وهو أن المرأة تستهدف مثلا أعلى يفوق فى صرامة مطالبه، وفى سموه المطلق - المثل الأعلى - الذى يستهدفه الرجل، فإن المرأة تتطلع أكثر من رفيقها إلى المطلق، وإلى استكمال النقص؛ ولهذا السبب كان طريق الأنوثة أشد وعورة من طريق الرجولة، وإزاء هذه الصعوبات التى تعترض تحقيق رسالتها كاملة كثيرا ما تلجأ إلى التضحيات الضخام، وإلى إنكار ذاتها، إلى البطولة الصامتة، المستترة وراء قناع من الرضا المصطنع..

ويؤيد د.يوسف كلامه ببحث نشره «فرويد» عام ١٩٣١ عن «الوظيفة الجنسية عند المرأة» فإذا أردنا أن نفهم تطلع المرأة إلى المطلق، والكمال على حقيقته يجب علينا أن نفهم طبيعتها الجسمية، ودراسة العوامل التى تعين نموها من الوجهة التشريحية، والفسيولوجية، والبيولوجية، وعلى ضوئها ننتقل إلى دراسة العوامل التى تعين نموها النفسى، والاجتماعى، ويتوقف استقرار النمو النفسى، وثباته على مدى استقرار الوظائف الفسيولوجية، وثباتها؛ وبما أن التوازن الفسيولوجى فى المرأة أشد تعقيدا، وأدق تركيبا، وأكثر تعرضا للتغير، والاختلال منه فى الرجل فلا شك أن التوازن السيكولوجى لدى المرأة سيكون أعسر تحقيقا، ومن هنا ينتقل إلى الصفة الثانية لتحليل طبيعة المرأة من الوجهة التشريحية؛ فالبنت منذ طفولتها تبدى اهتماما أكبر فى ملاحظة الفرق بين جسمها، وجسم الولد

obeikandi.com

بحيث تعتبر أن بها نقصا فى جسمها عن جسم الولد، ويضاعف هذا الشعور بالنقص التقليل من شأن البنت، ورفع شأن الولد خاصة فى بيئتنا الشرقية، وهو ما يولد لدى البنت عواطف الحسد، والعداوة، والحقد نحو الجنس الآخر.

والملاحظة الدقيقة لبعض ضروب السلوك لدى المراهقة، والمرأة البالغة، وكذلك المشاهدات الإكلينيكية تدل بصفة قاطعة على بقاء هذه الانطباعات المؤلمة فى اللاشعور، وعودتها من جديد خلال الحياة الزوجية.

وعندما نتناول بالتشريح الجهاز التناسلى نجده لدى المرأة أكثر تعقيدا، وأدق تركيبا، وأشمل أثرا من الجهاز التناسلى للرجل، فالمرأة بحكم تركيبها التشريحى، وبحكم وظيفة الحمل مركزة أكثر من الرجل حول نفسها، وحياتها الجنسية مرتبطة بعدد أكبر من الوظائف أهمها وظيفة تكوين الجنين، والرضاعة، ويترتب على ذلك صراع نفسى تتقاسمه قوتان؛ الاندفاع الجنسى من جهة، والخوف من الحمل من جهة أخرى، وقد تتغلب القوة الثانية على الأولى فتؤدى إلى بعض المتاعب النفسية، والقلق، والانحراف.

يقول العقاد عن تناقض المرأة:

-«فالمرأة عضو فى بيئة اجتماعية هى الأمة، أو المدينة، أو القبيلة؛ فهى زوجة، أو بنت، أو أخت، أو صاحبة عمل تجمعها بتلك البيئة الاجتماعية صلة العرف، أو الشريعة، والمرأة من جهة غير هذه أنثى لها تركيب حيوى يربطها بمخلوق آخر لا يتم وجودها بغيره، وهى أم تحب أبناءها بالغريزة، والألفة، وتصبر فى سبيلهم..

وللأنوثة صفات كثيرة لا تجتمع فى كل امرأة، ولا تتوزع على نحو واحد فى جميع النساء، فليست كل امرأة أنثى من فرع رأسها إلى أخمص قدمها، أو أنثى مائة فى المائة كما يقول الأوروبيون، بل ربما كانت فيها نوازع الأنوثة، ونوازع غيرها إلى الذكورة»..

وعن أخلاق المرأة يقول:

-«ومتى سقط سلطان الرجال فى أمة سقط معه سلطان الأخلاق؛ سواء منها أخلاق العرف، وأخلاق الإرادة؛ فالأمم المهزومة يشاهد فيها طوائف من النساء يجهرون بمخادنة الجنود الفاتحين، ولا يكرثهن أنهم قاتلو الأخوة، والأزواج، والآباء؛ لأن الخضوع للغلبة ألصق بطبيعة الأنوثة الفطرية، أو الحيوانية من جميع هذه الأواصر، والآداب..

فالتضحية هى لأسمى فضائل الإنسان، ومن ثم كانت المرأة أقرب من الرجل إلى التضحية فى وظائفها النوعية لأنها تستمد تضحيتها من غرائز الأمومة، وتموت فى سبيل الذرية»..

ويقول عنها فى كتابه «الإنسان الثانى»:

-«فى المرأة من أخلاق الطفل غيرته المضحكة، ونزقه السريع، واستغراقه فى الحاضر الذى بين يديه، وقصور نظره على الظواهر، والقشور، ومرحه، وغرارته، ونفوره مما يهم، ويصلح، ومحاكاته كل ما يراه، وتعويله فى أموره على سواه، وتقلبه، وكذبه، وريائه، وأثرته، وولعه باستطلاع المضمرات، والأسرار، وجشعه، وطمعه، وموجدته، وافتتانه بالثناء، والإطراء»..

وكما يقول العالم النفسى «الفريد ادلر» إن الفتاة الناشئة تتصرف فعلا تصرف من يشعر بالضعة، وتتكون لديها الرغبة فى التعويض، والنتيجة هى اندفاع الجنسين حين يتعجلان خطط التزاحم، والتنافس التى تشغل كلا منهما بغير ما يعنيه، وما يصلح له..

المرأة فى طور الطفولة:

وقر فى عقلية أسر كثيرة أفضلية الولد عن البنت، خاصة إذا كانت بيئة هذه الأسرة تخضع لأعراف اجتماعية، واقتصادية معينة جعلت للولد حقوقا سلبتها نهائيا، أو جزئيا من البنت، فالولد ينتظر أن يكون الوريث الشرعى، كما أنه أقدر من البنت على تخليد اسم العائلة، ومساعدة أهله، ومواصلة حرفة الأب؛ حتى إن الأم نفسها - وقد كانت بنتا - قد توطن نفسها على استقبال مولود ذكر فتفاجأ بأنها أنثى، ولا تجتهد لإخفاء آثار هذه المفاجأة، فتنتقل إلى البنت حتى فى الأشهر الأولى من الرضاعة - كما يذهب بعض علماء التحليل النفسى - لتنشأ مشبعة بجو تشعر فيه بأنها غير مرغوب فيها، وهو ما تنطبع به كل مظاهر سلوكها، خاصة إذا عزز ذلك مركز الأم الضعيف فى الأسرة..

ويعتقد د.زكريا إبراهيم أن وأد البنت ما زال سمة كثير من المجتمعات الحديثة؛ وإن اتخذ شكلا أكثر تحضرا، وذلك بإلقاء البنت فى «حفرة» النقص، والوضاعة، وحقارة الشأن..

وكما أن البنت الوحيدة بين أولاد قد تنزع إلى اتخاذ الطابع الذكورى، فإن الولد الذى يحيا بين أخوات قد يميل إلى اتخاذ الطابع الأنوثى..

وبالنظر إلى ألعاب كل من الأولاد، والبنات؛ نجد أن الأولاد يتجهون فى العادة نحو الخارج،

obeikandl.com

فيقومون بحركات يهتمون فيها ببناء أشياء يقوضونها، ويعيدون بناءها، أما البنت فتتجه فى العادة نحو الداخل حيث تعمد إلى وضع أشياء داخل البيت الذى ابتنته لنفسها، وتهتم بإحكام غلقه، ولما كانت هذه الألعاب تشي بأن شخصية البنت تدور حول الأمومة كوظيفة تجعلها مسئولة عن البناء، والحفظ، وبناء العش، وحفظ النوع، وهى كلها صفات داخلية، وهو ما تظهر أماراته أيضا فى نرجسيتها، فنجد الفتاه الصغيرة التى لم تتجاوز الرابعة، أو الخامسة تشعر بحاجتها إلى التزين، واكتساب إعجاب الآخرين باعتبارها موضوعا للحب، وبينما تملى الأم الأنوثة على ابنتها بالحد من نشاطها نحو الخارج، وجعلها صورة منها، نراها تحترم رجولة ابنها مهما كان صغيرا، وتدفعه بعيدا عن الداخل، فتتخلى عن الحد من حريته، وسرعان ما يقطع الطفل صلته بأمه، بينما تظل البنت مرتبطة بأمها بتكوينها النسوى، ومحاولة تلقينها واجبات المرأة، كما تعمد إلى تعليمها القيام بمهام البيت، والتدبير المنزلى..

البنت قبل المراهقة:

وإزاء اكتشاف البنت لبيئتها فى هذه الفترة، والواقع من حولها تتميز شخصية الفتاة بالفضول، وحب الاستطلاع بما قد يدفعها للتدخل فى شئون الغير، والتأثير عليه، والقيام بدور إيجابى قد يتخذ صورة مساعدة، أو مشاغبة، وعلى الرغم من ذلك تتخذ البنت طابع السرية، والغموض بما يؤدى بها إلى اصطفاء رفيقة تودعها أسرارها، وقد تستشرى هذه الصفة فى الفتاة فتجعل من كل زميلاتها محطا لأسرارها طالبة من كل منهن إخفاء أسرارها، وقد لا يتخطى بعضهن هذه المرحلة فتبقى من مكوناتها النفسية حتى إنها لو لم تجد أسرارا فى الواقع، أو افتقر هذا الواقع فإنها تختلق الحكايات المختلطة بين الخيال، والواقع حتى تقع فى دائرة الكذب، واختلاق الأساطير، ورغم أن الفتاة فى هذه المرحلة الاستطلاعية تنصرف أيضا نحو استطلاع وظائف أعضائها، وتحولات جسمها، خاصة ما يتعلق منها بالحمل، والولادة، والرضاعة، حتى لتتطلع إلى معرفة ما وراء ذلك من أفعال يقوم بها الرجل، فإنها قلما تبدى من ذلك نشاطا جنسيا بالمعنى المعروف؛ حتى إنها لتقلد المرأة الحامل مع زميلاتها دون تقليد مسببات الحمل، وما يخشى على الفتاة فى هذه المرحلة هو التقمص الوجدانى فى الصداقة مع قرينة لها قد تدخل مرحلة البلوغ قبلها فتنزع نزعها نحو الجنس المغاير، وهى لم تتهيأ بعد

obeikandl.com

جسديا، ونفسيا لهذه المرحلة من الانتقال من المثلية إلى الغيرية فيؤدى بها إلى الانحراف، والدعارة..

البنت فى مرحلة المراهقة:

تتميز هذه المرحلة من حياة الفتاة بالالتفات نحو جسمها، والتغيرات الفسيولوجية التى تحدث به، والتهيئة العضوية، فبعد أن كانت تستعمل المساحيق، ومواد التجميل تقليدا للكبار فإنها تستعملها فى هذه المرحلة لإشباع غرورها، وشعورها بأنها جميلة، كما تهتم بأعضائها التناسلية التى ظلت غافلة عنها كل هذه السنين على عكس الولد الذى يراقب تطور عضوه التناسلى طوال فترة ما قبل البلوغ..

وأهم ما يميز هذه الفترة عودة ارتباط البنت بأمها، والاحتياج إليها بل والالتصاق بها مرة أخرى، وتبدأ فى تغيير صداقاتها، ومعارفها بما يميل بها نحو الجنس الآخر، وعادة ما تتميز هذه الفترة بالمرحلة المبكرة، والمرحلة المتأخرة حيث تتصف الأولى بأطوار طفولية بالمبالغة فى إظهار أمارات البلوغ دون نضوج نفسى؛ فتندفع البنت فى تجارب لا تقدر عواقبها - رغم عدم وجود الدافع الجنسى فى هذه الفترة - وقد يفلت العيار إزاء أكثر من تجربة فاشلة فيضيع منها أعز ما لديها، ويبتلى المجتمع بالدعارة، والسفاح، والإجهاض، والإصابة بالأمراض التناسلية الخطيرة بوازع الاندفاع الأعمى إلى تقليد المبالغات، مع بطء مواكبة هذا الاندفاع لقمعه، والتعامل معه، فضلا عما يولده الحيض لدى الفتاة من توتر تناسلى، وشيء من الحاجة إلى ممارسة العادة السرية، ومن هنا يمكن أن تتميز هذه المرحلة بالميول الجنسية المزدوجة، بينما تتميز المرحلة المتأخرة بالميول الجنسية الغيرية..

ويعد الحيض من أبرز مظاهر هذه المرحلة حيث يمثل تجربة حاسمة فى حياة الفتاة عضويا، ونفسيا، وهو يرتبط بالعوامل النفسية الكامنة فى شخصية الفتاة من غضب، وخجل، وهبوط نفسى، وشعور بالنقص، وإحساس بالذنب..

ولا يعنى ظهور الحيض اكتمال أنوثة الفتاة؛ بل يصبح جسدها كله مرهف الحساسية، فتشعر أحيانا بالاضطراب الجنسى لأقل ملامسة، فضلا عن انتشار الحساسية فى موضع معين من جسمها، وتدفعها نرجسيتها نحو تأمل نفسها فى المرآة مبدية إعجابها بجمالها، ومفاتن جسمها، وتتقمصها أحلام اليقظة، والخيال، كما تجد نفسها مندفعة لجذب إعجاب الجنس الآخر لترضى غرورها بجمالها، وفتنتها، وقد تؤدى بها هذه النرجسية إلى صعوبة التأقلم مع بيئتها، وأعضاء أسرتها، فقلما تتقبل

obeikandl.com

النقض، كما تشعر بأن أحدا لا يفهمها، ورغم ذلك فإنها تفتح قلبها للحب بسرعة كبيرة ليس لمحبوب فى الواقع، ولكن من الممكن أن يكون من نسج الخيال..

وقد تستسلم فتاة هذه الفترة لنوبات اليأس، والحزن، والبكاء، وهو ما يفسر دموع النساء اللاتى يستبقين شيئا من الحاجة إلى المازوشية من مرحلة المراهقة، وتلك الرغبة فى الاستسلام لدواعى الألم، والصراع، والهبوط النفسى، ولا يحد من هذه المظاهر سوى الجنسية المثلية حين تفضى إلى صديقاتها بأدق أسرارها، وخباياها الجنسية، والعاطفية، وقد تكون هذه الصداقات المثلية روحية خالصة، أو جنسية متطرفة حسب البيئات، والعادات، والأجناس..

ويتخذ النشاط الجنسى لدى المراهقة طابعا خاصا لإدراك الفتاة لصميم وجودها الجنسى باعتبارها «رغبة ونداء»، فالنشاط الجنسى لديها نشاط خفى مستتر، وقد تجد الفتاة نفسها مضطرة إلى تحمل شهوتها الجنسية كمرض خبيث تجهل أسبابه يثنيها عن التعبير عنه بصراحة مشاعر «الخجل» لاقترانه بأسباب حيوية، ونفسية، واجتماعية فيتخذ النشاط الجنسى لديها طابع الانتظار، والتوقع، والسلبية؛ فتحلم بالارتماء، والاستسلام، وحيال هذا لابد أن تتقبل الفتاة وضعها «كأنثى» تُطلب، ولا تطلب، فتصبو بكيانها كله نحو الرجل الذى سيجعل منها الزوجة، والأم، والذى تستسلم معه لرغبتها الجنسية، ويضمن لها أهميتها فى المجتمع، وهو الذى سيحررها من منزل والدها، وسلطانه..

ويلعب جسم المرأة دورا كبيرا فى تكوينها النفسى لوثوق العلاقة بين الإفرازات الغُدية، والجهاز العصبى حتى ليقال إن جسم المرأة «جسم هستيرى» لا فاصل فيه بين الحياة النفسية، والعضوية، وقد يبلغ لدى بعض الفتيات حد المرض، فما يسبب الاضطراب فى جسدها هو الحصر النفسى الناشئ عن مجرد كونها أنثى، فالأوضاع الاجتماعية القائمة هى التى تفرض الرجولة على الرجل، والأنوثة على الأنثى، وهذا ما أضاف لآلام المرأة النفسية التى تنبع من تركيبها العضوى آلاما أخرى فرضها عليها المجتمع من قيود، وقوالب، وحدود هى أقرب إلى التقمص، والنفاق اللذين تأصلا فيها دون الرجل الذى منحه المجتمع كل الحرية، والانطلاق مادام رجلا..

المرأة الزوجة:

يرى بعض المفكرين أن نظام الزواج هو التبرير الاجتماعى الوحيد لوجود المرأة، وأن المجتمع ينظر

للعانس على أنها امرأة ناقصة، فالزواج للمرأة فى نظر الكثيرين ضمان لها فى كسب العيش، بالإضافة إلى الإشباع الجنسى، والعاطفى الذى ينظر لهما المجتمع بعدم الارتياح إذا أشبعتهما المرأة خارج نطاق الزواج، بل إن بعض المجتمعات تعد سكنات، وحركات المرأة غير المتزوجة، بينما تضع هذا الإصر عن تلك المتزوجة، ويرى العلماء أن الدافع الجنسى واحد عند كل من الرجل، والمرأة، وإن كان الزواج يمثل جزءا من حياة الرجل، فهو كل حياة المرأة..

فالرجل فى معظم الحالات أكثر رضا بالزواج من المرأة، وهو لا يجد صعوبة فى التوافق، والتكيف فى الزواج، بينما لا تتوافر قدرة التكيف، والتوافق إلا من تلك المرأة ذات النزعة الموضوعية التى تقترب بنفسيتها، وذهنها لشخصية الرجل، بينما تفشل أخريات فى تحقيق هذا التوافق إذا ما صادفن عوامل نفسية معقدة، وعديدة إبان الطفولة، أو المراهقة، وخرجن بشخصية غير متكاملة، وقد تصاب بخيبة أمل شديدة عندما لا يتطابق مثلها الأعلى مع الواقع، فضلا عن أن الفتاة تدخل مرحلة الزواج، ولديها كثير من الرهبة، والهواجس تتعلق بالغموض الذى يكتنف حياتها الجديدة مع شخص يختلف عن كل الذين كانت تعرفهم من قبل فى محيط الأسرة، وخارجها، لاسيما إذا كان الزواج تقليديا دون سابق معرفة، أو علاقة عاطفية، أو كان صفقة تجارية، أو مصلحة، أو لمجرد التخلص من العزوبية، أو على سبيل كسب العيش بطريقة مفيدة..

وقد تتصور الفتاة الحياة الجنسية بصورة حيوانية، فعليها أن تقدم الجنس على مذبح الزوجية، وقد تعتبره إثما منكرا، أو خدمة للزوج خاصة إذا تعزز هذا من جانب الزوج؛ الذى لا يهمه سوى تحقيق المتعة لنفسه دون اهتمام بنصيب الزوجة منها، وقد تحدد المرأة علاقتها الودية، أو التنكرية للجنس منذ الليلة الأولى «ليلة الزفاف» بناء على أسلوب الرجل فى فض بكارة زوجته، فقد تحقد المرأة على الرجل، وقد تحفزه، وقد تحتفظ المرأة بأسوأ الذكريات لهذه الليلة، نظرا لما يحيطه المجتمع من هالة عجيبة من السحر، والقداسة لهذه الليلة، فعلى الزوجان أن ينجزا هذا الأمر فى ليلة واحدة بأى طريقة حتى إذا أتى الصباح، وأتى الأهل، والأقارب، والمهنئون وجدوا كل شىء على ما يرام دون النظر لما عانياه من صراع، وعنف، وألم، أو حتى هدوء، واستسلام تمتزج فيها القوة باللطف، والترقب، والاندفاع، والنجاح، وخشية الفشل، وتخيل علامات الاستفهام فى العيون خاصة إذا كان الزوجان، أو أحدهما جاهلا بالعملية الجنسية، وأساسياتها..

وقد يصاب بعض السيدات بالبرود الجنسى، أو «عقدة النقص» من جراء الاندفاع الشهوانى للرجل

فى هذه الليلة، وقد يصبح الجنس فى نظر الزوجة شاقا تؤديه لمجرد إرضاء زوجها، فقد يختلف إيقاع الحياة الجنسية لدى الرجل عنه لدى المرأة، فالمتعة لدى الرجل لها بداية، ونهاية إذ تبدأ بالإثارة، وتنتهى عادة بالقذف، بينما تظل لدى المرأة ظاهرة نفسية معقدة، وبطيئة قلما تنتهى بشكل حاسم واضح المعالم، وقد ينشأ البرود الجنسى لدى المرأة ليس من إساءة فض البكارة ليلة الزفاف فحسب؛ بل قد تنشأ خلال الحياة الزوجية من اعتياد الرجل إيقاظ الرغبة الجنسية لدى الزوجة، وتركها دون إشباع؛ فتلجأ المرأة إلى هذه الوسيلة كحائط دفاع ضد غريزتها التى تتيقظ دون إشباع، وهناك حالات لا تعرف فيها المرأة اللذة الجنسية عن طريق الاتصال الجنسى بل عن طريق بعض مناطق الحساسية الجنسية المنتشرة على سطح جسمها..

وإذا ما درسنا حالات الخيانة الزوجية النفسية فإنها لا تخرج عن كونها وليدة الاحتجاج، والتمرد، أو التمتع الزائد بالحرية إلى حد الإباحية، ثم يأتى انعدام التوافق الجنسى الذى قد يسعى بالمرأة إلى الحصول على النشوة بعيدا عن زوجها، أو انعدام الجاذبية الجنسية حينما تصبح الحياة الزوجية قائمة على العداء، والاشمئزاز، وعدم الاكتراث..

المرأة الأم:

تتميز الأمومة الإنسانية عن الأمومة الحيوانية فى أن الأولى ممتدة طول حياة الطفل، والأم، فما دام الطفل موجودا فى أى مرحلة، والأم موجودة فالعلاقة لا تنقطع وإن اتخذت أشكالا متعددة خلال المراحل المختلفة؛ بينما فى عالم الحيوان تنتهى فى مرحلة الأمومة عندما يشب الطفل عن الطوق، ويصبح قادرا على نفسه، بل قد تنهره الأم إذا ما توكل عليها..

والعلاقة بين الأم، والنطفة الموجودة فى أحشائها علاقة غامضة، ومختلطة، وتعتبر هى الأساس فى بناء هذا النوع الفريد من الحب، وهو الأمومة فوحدة الأم فى أحشائها وحدة عضوية تتحد فيها الحاجات العضوية، فهى وطفلها كائن واحد..

وتشعر المرأة السوية إبان الحمل بالسلام، والهدوء، والاطمئنان لتخيلها أن سبب وجودها كامن فى جوفها، وأن امتلاء بطنها هو فى نفس الوقت امتلاء لحياتها، وقد تخضع المرأة إبان تلك الفترة لكل من نرجسيتها التى تصرف اهتمامها نحو العناية بجسمها، ونفسها دون الاكتراث بأى عمل آخر،

obeikandl.com

وأنها تشعر كما لو كانت فى إجازة، فينمو لديها الشعور بالأهمية، فلم تعد مجرد موضوع جنسى، أو خادمة؛ بل أصبحت حاملة لرسالة النوع، ينظر إليها المجتمع بالاحترام، والتقدير حتى ليبدو الحمل لديها أداة تستعين بها فى تبرير أفعال لا تبدو معقولة، ولا مقبولة، وماسوشيتها التى تتحمل بها آلام الحمل، وتقلباته، ووطأته..

وقد يختلف رد فعل المرأة بالنسبة للإجهاض تبعا للظروف التى أدت إليه، ومع ذلك لا يستتبع هذه العملية لديها إلا الشعور الحاد بالإثم، والإحساس القوى بتأنيب الضمير، ولا تستطيع المرأة تقبل الأمر، أو عدم الاكتراث مهما حاولت القيام بتبرير عقلى لفعلتها، ولا يرجع هذا الشعور إلى التربية الدينية التى تعتبر هذا الإجهاض قتلا للنفس فحسب، بل تشعر المرأة فى هذه الحالة بالخلاء، أو الخواء مما يتولد عنه أسفها على التضحية، وسخطها على من دفعها لاتخاذ هذا المسلك..

وتتجلى أيضا غريزة الأمومة لدى الفتاة العانس، والمرأة العاقر باتجاهها نحو أطفال الآخرين، أو التبنى، أو حتى إفراغ هذه العاطفة فى الزوج، ومن حولها، أو ممارسة مهنة تمارس فيها الأمومة بطريقة تلقائية..

المرأة والشيخوخة:

تتميز هذه المرحلة فسيولوجيا فى حياة المرأة بانقطاع الحيض، وتوقف تكوين البويضات، وضمور الأعضاء التناسلية، وظهور أعراض الشيخوخة على باقى أجزاء الجسم، مصحوبا بتغييرات هرمونية، وآثار سيكولوجية تتعرض لها المرأة فيما بين الخامسة والأربعين، والخمسين، ولهذه المرحلة فترة تمهيدية تشبه تماما مرحلة ما قبل البلوغ، وكأن المرأة تحاول بها تأخير انسحاب الشباب، والنضارة تظهر كاضطرابات فى الدورة الشهرية، وسرعة التهيج، والهبوط النفسى، وقد يتضاعف نشاط المرأة فى هذه الفترة، وربما تشعر برغبة حادة فى الحمل، والولادة، ثم ما تفتأ أن تهاجمها الشيخوخة فيؤول الأمر بجهاز المرأة التناسلى إلى كتلة من الأنسجة الليفية، الصلبة، الملتحمة، الزائدة عن الحاجة، ولا تقوم بأى وظيفة فعالة، كما تطرأ تغييرات أخرى على الأعضاء الغدية؛ فتزداد طبقات الشحم تحت الجلد، وينمو الشعر بغزارة(خصوصا فوق الشفتين، وعلى الخدين، وفى الأجزاء المحيطة بالبطن)، فتفقد المرأة تقريبا كل مظاهر أنوثتها التى اكتسبتها طوال فترة مراهقتها، وتقترب أكثر من مظاهر

الرجولة، فإذا كانت المرأة تخدم النوع طيلة ثلاثين عاما هو نصف عمرها تقريبا، فكيف تقضى بقية عمرها؟..

تكتسب المرأة فى هذه الفترة بعض صفات الرجولة، فتظهر الكثير من الوضوح، والموضوعية، والاعتدال فى أساليب التفكير، ويقترب سلوكها من رجل الأعمال المتميز بالحزم، واللباقة، والروح الاجتماعية، وليس أدل على تزايد نشاط المرأة العقلى فى هذه السن من أن كثيرات لا ينبغن فى تخصصاتهن إلا بعد بلوغهن سن الخمسين، فهل يصح لنا القول بأن سن اليأس هو سن تزول فيه الفوارق السلوكية بين الجنسين؟!.. بحيث يتساوى الجنسان فى هذه السن، وأن الرجولة بهذا تكون هى المظهر السائد؟.. وعزاء للأنوثة..

وعلى الرغم من ذلك فهى لا تتخلى عن الأمومة فى هذه المرحلة، فتراها تحمل أولاد أولادها(أحفادها)، وتبذل لهم حبا، وعطفا أكثر من والديهم، وقد تعيش مشاكل ابنتها مع زوجها، ومشاكل ابنها مع زوجته، وهكذا لا تستطيع الخروج من الحياة، فحياتها هى الأمومة، والأمومة هى حياتها، وقد تكون سن اليأس مصحوبة ببعض أعراض التهيج الجنسى، خصوصا لدى النساء اللآتى عانين من فتور الرجل الجنسى بعد الزواج؛ فتشتعل الغيرة فى نفسها ظنا بانصراف زوجها عنها نحو امرأة أخرى..

ليس هناك فارق إذا بين الذكر، والأنثى لأنهما متداخلان لقول الرسول الكريم:

-«النساء شقائق الرجال»..

فليس ثمة أنوثة بحتة، ولا رجولة بحتة؛ إذا اعتبرنا العامل الإنسانى فى الجنسين، والفروق البيولوجية التى يحتمها تقسيم العمل لقوله تعالى:

-«وما خلق الذكر والأنثى(٣) إن سعيكم لشتى(٤)» الليل..

فلا معنى أن تنسى المرأة وظيفتها الأصلية كى تنافس الرجل فى أعمال قد لا تكون فى حاجة لخوضها؛ كى تثبت لنفسها أنها ليست أقل من الرجال، فهل نازعها الرجل يوما أعز خصائصها، ووظائفها التى لا يقوم بها غيرها من حمل، وولادة، ورضاعة، وتنشئة أجيال من الرجال، والنساء؟.. فأكبر سبب لحسد امرأة هو سعادة امرأة أخرى فى الحب، والزواج؛ خاصة إذا عاشت المرأة حياة صعبة فى طفولتها، ثم شعرت بعد ذلك بأن زوجها لا يحبها، وأن حياتها الزوجية تخلو من المودة، والرحمة، وقد يبث فيها هذا الحسد روح الثورة، والتمرد، والاستعلاء على زوجها؛ فتنفخ فى روحها الغرور بجمالها، وإمكانياتها، وقدراتها، وذكائها، وعلمها، وثقافتها، وشهاداتها، ولهف الرجال عليها، وهى صفة من

صفات زعيمات المرأة المناديات بالتحرير، والمساواة ككلمات طائشة جوفاء، فالمرأة التى يريدون تحريرها من بيتها، والمتربعة على عرشه ليست فى السجن، والمساواة غير موجودة بين الرجل، والمرأة لاختلاف السعى، والتيسر لما خلق له كل منهما كما بينا..

إن المرأة منذ فترة مبكرة جدا من عمرها تحفظ شكل، وحجم، وموقع كل جزء من جسمها، وعلاقته بالأجزاء الأخرى، وترسم لنفسها صورة جذابة جميلة تتجاوز كل التفاصيل غير الجميلة فى مظهرها، وهذا من سمات الشخصية الناضجة إذ يصاحب ذلك حالة معنوية مرتفعة تجعلها تنضح بالحيوية، والثقة بالنفس، وهى بعد مرحلة النضج تقبل بعض النقائص فى شكلها مثل حجم الأنف، أو شكل الأذن، أو لون البشرة، أو قصر القامة، أو البدانة إلى آخر تلك العيوب الشكلية، بل تشعر بأن هذه التفاصيل هى سبب تميزها فتشعر بقدراتها الأنثوية، وتأثيرها من خلال ذكائها، وإحساسها بالحب؛ فتندمج فى علاقة حميمة مع الجنس الآخر التى تجد نفسها مكملة له، وأن لها دورا أنثويا تجاه الدور الرجولى عن رضى، واقتناع..

إن قناعة المرأة الناضجة بالدور الأنثوى يجعلها تجزع أشد الجزع إذا أصابها مكروه فى رحمها، أو ثديها، وامتد مشرط الجراح لكى يستأصل أحدهما مهما طعنت فى السن، وأنها من الممكن أن تتخيل نفسها بلا رأس، ولكنها لا تتخيل نفسها بدون رحم، أو بدون ثدى حتى لو كانت لا تحتاجهما وظيفيا..

وقد تضطرب المرأة اضطرابا شديدا بعد إزالة الرحم، فتقل ثقتها بنفسها، وتبدو أكثر عصبية، وحدة، واندفاعا، وشكا، وتميل إلى البدانة لاضطراب النظام الهرمونى للجسم، وهى فى هذه الفترة أكثر احتياجا لزوجها، وتزداد هذه الأعراض بشدة إذا ما تم إزالة المبيضين من الرحم، كما أنها تهتز اهتزازا عنيفا إذا بتر أحد ثدييها لأى سبب فتنهار ثقتها بنفسها على أنوثتها الضائعة، واستمتاعها بحياتها، واستجاباتها العاطفية، والجنسية؛ فهو محمل ببعض الأعصاب الحسية التى تشكل جزءا من الأحاسيس الجنسية عندها..

شخصية المرأة:

عدد علم النفس الشخصيات، وصنفها، وبين سماتها، وفرق بين مظاهرها، وقد وجدنا أن

بعضها من الممكن أن يتصف به الرجال دون النساء كالشخصية «النرجسية»، والشخصية «الاضطهادية(البارونوية)»، فهى لا تتفق مع الأنوثة بحال، ولا نستطيع أن نقول على الأنثى إذا ظهرت فيها أنها نرجسية، أو اضطهادية، وإذا وجد شىء منها فى الأنثى فهو من تأثير التنشئة، والبيئة، وما تعرضت له من محن، وصعاب شوه شخصيتها، وأثر على نظرتها للحياة؛ فالشخصية النرجسية مثلا هى شخصية انتهازية مغرورة معجبة بنفسها محتقرة للآخرين، فتجد أن من واجبهم أن يسخروا أنفسهم لخدمتها، وراحتها، والعناية بها، ولا يتفق ذلك مع طبيعة الأنثى السوية المعطاءة المنكرة لذاتها رغم تفانيها، وتعبها، وإخلاصها..

أما الشخصية الاضطهادية فهى التى تشك، وتسىء الظن بكل الناس، وتتمسك برأيها مهما انتقد الذين حولها مزاعمها، وهى شخصية تشعر دائما بنظرات الشماتة، والتحفز، وتوقع العداء، وقد نجد شيئا من مظاهر الشخصيتين فى المرأة، ولكنه ليس طبعا أصيلا فيها، ولكن ربما زرع فيها من الرجل سواء الأب، أو الأخ، أو حتى الزوج بالإيماء، ثم بالتطبع..

والشخصية «الهستيرية» قد تشترك فيها المرأة كثيرا مع الرجل، لأنها إنسانية شائعة أكثر منها جنسية تختص بطباع جنس دون الآخر، فهى شخصية تتميز بالتقلب، والأنانية، والحرص الزائد، فإذا أعطت فمن أجل المصلحة، أو حب الظهور، وهذه الشخصية تلفت الأنظار بأى مظهر حتى لو كان فجا، وزاعقا سواء بالإشارة، أو التلميح، أو الملابس الغريبة، والصارخة، أو الضحكات الرنانة، والحديث الصاخب المتواصل، وتتحمس لكل جديد، وهذا ينسحب على كل شىء فى حياتها حماس، ثم خمود، عواطف جياشة، وعلاقة حميمة، ثم برود، ولا مبالاة قاتلة، إثارة، ثم تبلد، وبرود جنسى، ولا تستجيب أثناء العلاقة الجنسية، ولا تستمتع بها، وقد تنفر منها، فإذا بالغت فى هذه الرغبة أثبتت لنفسها، وغيرها أنها مرغوبة، وشهية، ومشبعة، وهى فى غيرتها حادة، وعنيفة إلى حد الموت، فلا تطيق أخرى، فإذا ما تم تجاهلها، وتجنبها فإنها تهدد بالانتحار لشد الانتباه، والاهتمام بها باستمرار، حادة المزاج تثور لأتفه الأسباب، وتدمر، وتحطم، لا شىء يرضيها، وسريعة القابلية للإيماء.. وهى شخصية قابلة للتفكك، ومن السهل أن تصاب بأعراض جسدية إيمائية؛ كالصداع، والآلام، فإذا ما تم الضغط عليها من البيئة التى حولها فإنها تصاب بالتفكك الكامل، وتنتابها أعراض الإغماء، والتشنج، والشلل المؤقت، أو فقد حاسة من الحواس التى سرعان ما تزول..

أما الشخصية «السيكوباتية» فهى الشر يمشى على الأرض؛ رغم ما يبدو عليها من سمات الوجه

السمح، والإنسان البرىء الدمث الذى يغطى قلبا مغلفا بالسواد، والحقد الأعمى فينخدع فيه من حوله، وهو لا يضحى من أجل أحد، وإن أظهر التأثر الكاذب، فى طبعه الخيانة، والتسلق ليصل إلى أهدافه، وهو مقنع، وسلس الحديث، ويحلف بأقدس الأيمان على صدقه، ولكنه لا يتحمل المسئولية، وسلوكه الجنسى مضطرب، أما الشخصية «الانطوائية» فهى تميل إلى العزلة، وعدم الاختلاط بالناس، كما تعجز عن التعبير عن مشاعرها، وعواطفها، وانفعالاتها، وهى عكس الشخصية «الانبساطية»..

تبادل الأدوار:

لا يستطيع أى إنسان تمثيل دور واحد محدد فى الحياة إلا إذا كان إنسانا جامدا، متواضع الفكر، قليل الحيلة، أو خانع، وكسول، وإذا ما جرب الإنسان تبادل دوره مع آخر يحبه، أو شريكا له فى شىء؛ فإنه يجلب سعادة لهذا الشريك، وبالتالى يطرد الملل، والنمطية التى ترين على قلبه، وحياته، ومن هنا تحل الأزمات بين الزوج، والزوجة إذا شاركها الرجل حياتها العادية(المنزلية مثلا)، بعد أن شاركته المرأة حياته الخارجية هذه الأيام؛ فأصبح يلتقى بالمرأة فى كل عمل خارج البيت، وكذلك إذا شاركته الزوجة اهتماماته داخل، وخارج المنزل، وأنصتت باهتمام لمشاكله فى عمله، وقد تصل إلى اقتراح المناسب من الحلول، فالاهتمام المشترك عادة ما يوحد الأهداف بينهما، ويعمل على إزالة الاحتقان الناشئ عن إقامة الجزر المعزولة فى البيت الواحد..

أكدت دراسة أمريكية حديثة أن صورة المرأة عن ذاتها، والطريقة التى تفكر بها فيما يتعلق بعلاقتها مع الرجال، وكيفية التعامل معهم تتوقف إلى حد كبير على تجاربها، وعلاقتها بوالدها فى طفولتها المبكرة، وتشير الدراسة أيضا أن البنات اللاتى لا علاقة لهن بآبائهن، أو تكون العلاقة بينهم سطحية يتخلين مبكرا عن متابعة دراستهن، وقد يتورطن فى علاقات عاطفية فاشلة نتيجة لاحتياجهن إلى صورة الرجل فى حياتهن، وجهلهن بتصرفات الرجل..

والمرأة قيمتها بالرجل، فلا تستطيع العيش بدونه؛ فهى لا تجد نفسها إلا بالاقتران به، يقول «د.عادل صادق» أستاذ الطب النفسى بجامعة عين شمس فى جريدة أخبار اليوم الصادرة بتاريخ ٣٠ من مارس ٢٠٠٢:

-«الحب هو محور حياة المرأة، والرجل هو مركز توازنها، وإحساسها بذاتها كأنثى لا يتحقق إلا

openkanar.com

من خلال وجود الرجل، وإذا لم يتحقق ذلك تصبح كالأرض الجرداء، ولذا فإن حالتها المعنوية تعتمد على الرجل إلى حد كبير صعودا، وهبوطا مثل أمواج البحر، فالمرأة ليست رقم واحد فى حياة الرجل؛ بل تأتى فى الترتيب بعد العمل، والنجاح؛ فإذا تعارضت معهما فإنه يبتعد عن المرأة، ويختار العمل، والنجاح فهو لا يحب الدوران فى فلك المرأة؛ بل العكس يحب أن تدور المرأة فى فلكه، وهو لا يحب الالتزام المطلق؛ بل يبتعد، ويقترب من المرأة بقدر احتياجه لها والتى غالبا ما يكون احتياجا حسيا حتى إن هناك حالة مرضية تصيب الرجل أحيانا تسمى «مخاوف الالتزام»؛ وفيها لا يقوى الرجل على ربط حياته نهائيا بامرأة، وبذا لا يتزوج أبدا»..

بينما ترى «د. سامية الساعاتى» أستاذ علم الاجتماع بكلية آداب عين شمس فى نفس العدد من الجريدة نفسها:

-«إن الرجل فى علاقته بالمرأة يلعب لعبة الصياد، والفريسة فيقترب حينا، ويبتعد أحيانا حتى يوقع بفريسته، فالرجل يحب أن يلهث حتى يفوز بمن يحب فى النهاية، ويرفض أن تكون المرأة هى البادئة بإظهار عواطفها، وإذا ما حدث نادرا وتزوج من التى بادأته بمحبتها، وصارحته بمشاعرها فإنه فى أول مشادة زوجية لا يتورع أن يصرخ فيها:

-أنتِ اللى جريتى ورايا..

فتذوب المرأة خجلا، وتلعن الصدق، والصراحة»..

obeikandl.com